زكي مبارك

الأديب الذي أحب العراق

للأستاذ نجدة فتحي صفوة

سيسأل قوم من زكي مبارك ... وجسمي مدفون بصحراء صحراء
فإن سألوا عني فني مصر مرتدى ... وفرق ثرى بغداد تمرح أهوائي

لم تكن خسارة الأدب العربي في وفاة الدكتور زكي مبارك — رحمه الله — هينة، ولا بالتي يمكن أن تعوض

وقد قال الأستاذ الزيات في رثائه الرائع للمرحوم المازني «.. فإذا أضيف إلى ذلك أن المازني كان أحد الكتاب العشرة الذين يكتبون افتتاحهم عن علم، ويفهمون أدبها عن فقه، ويعالجون بيانها عن طبع؛ وأن هؤلاء العشرة البررة متى خلت أمكنتهم في الأجل القريب أو البعيد، فلن يخلفهم في هذا الزمن الثائر الحائر المجلان، من يحمل عنهم أمانة البيان، ويبلغ بعدهم رسالة الأدب، أدركنا فداحة الخطب الذي نزل بالأمة العربية يوم توفي هذا الكاتب العظيم» (١)

وهذا كاتب آخر من أوائك «العشرة البررة» فقدته الأمة العربية يوم فقدت المجاور الأزهري، والناقد الأدبي، والباحث المتعمق، والشاعر المتغزل، ورئيس سنتريس، وحبيب باريس، وطبيب ليلى المريضة في العراق، (الدكاترة) زكي مبارك!

ولا ريب أن أدب زكي مبارك سينال ما يستحقه من دراسة الباحثين وعناية المؤرخين، ويحتل مكانه اللائق به بين أدباء جيله، واترك لأصدقاء زكي مبارك أن يرثوا الصديق الوفي، ولتلاميذه وعشاق أدبه أن يدرسوا الكاتب البليغ، ولزملائه ومعاصريه أن يترجموا للفلاح الذي دفعه جده وطموحه من القرية إلى الأزهر، ومن الأزهر إلى الجامعة، ومن القاهرة إلى باريس، ومن المحمول إلى الصف الأول بين أدباء هذا الجيل..

وإنما هذه تحية من عراق إلى الأديب المصري الذي أحب العراق، فأحبه العراقيون، ومنح هذا البلد قطعة من قلبه، وجانبا من أدبه، فبادله أهله المحبة والإعجاب، وقابلوه بالرعاية والإكرام..

تحية وفاء إلى تلك الروح اللطيفة المرفرفة فوق بغداد..

ترجع صلة الدكتور زكي مبارك بالعراق إلى عهود دراسته الأولى يوم عني بالأدب العباسي وشغل نفسه أعواما طويلة بأدباء العراق، فبعثت هذه الدراسة في نفسه محبة العراق، واسترعى تاريخه الحافل تفكيره وألهب خياله. وقد خاطب العراقيين ذات مرة في بعض محاضراته العامة قائلا: «وأنا في الواقع تلميذ بغداد قبل أن أكون تلميذ القاهرة أو باريس، فإن رأيتم صراحتي فلا تلوموني، فاللوم على أسلافكم الذين شرعوا مذاهب العقل والمنطق»

حتى إذا دعي — رحمه الله — إلى التعليم في دار المعلمين العالية ببغداد سنة ١٩٣٧ رحب بذلك قائلا: إن من العقل أن أعرف جوانب من الشرق بعد أن عرفت جوانب من الغرب. وصح عندي أن الهجرة إلى العراق قد تشرح دقائق الأدب في

القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد. وصارت جمعية الفتوة وخاصة بعد أن بناها الناصر لدين الله مجموعة فتيان يربطهم دستور ديني أخلاقي له واجبات وشعائر منظمة، وينتظر منهم التحلي ببعض الفضائل والقيام بخدمة عسكرية للاسلام

وبعد الفتح المغولي زادت صلة الفتوة العسكرية بالطرائق الصوفية وبنقابات الحرف. وقد بدأ ذلك في الأناضول وانتشر في العالم الإسلامي حتى صارت كلمتا (نقابة) و (فتوة) تشيران إلى مدلول واحد، وقد لعب هذا الاتجاه دوراً خاصا في تطور التاريخ الإسلامي العام

ولابد هنا من ذكر الآراء عن نشأة الفتوة؛ فالأستاذ نيشتر يرى ثلاثة أدوار للفتوة تمثل خطوات انحلال اجتماعي مطرد. فهو يرى أن حركة الفتوة بدأت كحركة فروسية أرستقراطية، ثم تحولت فصارت حركة الطبقة المتوسطة في القرن الثالث عشر الميلادي وأخيرا هبطت في القرن الخامس عشر إلى أكثر من ذلك وأصبحت حركة العوام، وهكذا اندمج الفتيان بنقابات الحرف

ويرى تورنبيخ أن الصوفية والنقابات لم يضموا جمعيات الفتوة بل قلدوها مقتبسين شعائرها ومثلها العليا وأخيراً اسمها

الكلام بقية

عبد العزيز الدوري

(١) الرسالة. العدد ٨٤٥ الصادر في ١٢ سبتمبر ١٩٤٩

العصر العباسي ، وليس من المقبول أن يصح لمثلي أن يصف باريس من علم ، ويصف بغداد من جهل

وشد رحاله إلى بغداد ، فكان أصر فيها سفيرا أدبيا ممتازا ، وأحدثت زيارته فيها حركة أدبية ونشاطا فكريا بما كان يبثه قلمه — على عادته أبان كان — في صحافة العراق ومجتمعاته وأنديته من حيوية وحركة . « وما هي إلا أشهر قلائل » كما يقول « حتى كنت على صلات بمختلف الطبقات في بغداد ، وحتى سمحت لنفسي أخطاء كثيرة في فهم الأدب والتاريخ »

قضى زكي مبارك في العراق تسعة أشهر حافلة بالعمل زاخرة بالإنتاج ، ولم يقف نشاطه في حدود عمله الرسمي ، أو دروسه في دار المعلمين العالية ، وإنما تجاوزه إلى تأليف ستة مجلدات عن العراق (٢) وكتابة مئات المقالات ، وإلقاء عشرات المحاضرات . وقد عنى — رحمه الله — بشؤون العراق الفكرية والثقافية بعناية عظيمة ، فدرس الأدب العراقي من فهم وروية ، وكتب عن المرأة العراقية ونهضتها ، وتبنى فكرة إنشاء الجامعة العراقية ، وتحمس لها أكثر من العراقيين ، ودعا إليها في كل مناسبة — أحيانا بدون مناسبة أيضا — ولعله كان أول من دعا لها ووجه إليها أنظار المسؤولين ، وحملهم على التفكير الجدي فيهـــا . وتطوع — رحمه الله — لتصحيح ما كان خاطئا من الآراء والمعلومات عن العراق في البلاد العربية ، فكان على قوله « من سور العراق في مصر ، ومن صور مصر في العراق » وكان رسول الأخوة العراقية المصرية ، أدى بقلمه مالا تؤديه سفارات ولا معاهدات ، قال في المصريين — وهو شاهد من أهلها — : « إن المصريين يفدون إلى العراق وليس في صدورهم ثروة غير الحب ، ومن أجل هذا يحبهم العراقيون ، فإن سمعتم أن مصريا شقي في العراق فاعلموا أنه مصري مزيف »

كما قال في أهل العراق — وهو الخبير العارف بهم — « إن العراقيين يحبوننا أصدق الحب ، فليعرفوا جيدا إننا نحبهم ونتمنى لهم كل خير ، وننظر إلى بلادهم نظر الأخوة الصادقة التي لا تضمر غير العطف والصدق »

وطلب إليه أن يلقي في بغداد محاضرات أدبية عامة ، فاختار لموضوعها شاعرا عراقيا إكراما للعراق ومجاملة لأهله ، ولما رآه من شبه بين شخصية الشريف الرضي وشخصيته في تدفق الإحساس وكآبة العاطفة وغدر الزمان ، فأدى بذلك خدمتين جليلتين ، الأولى للأدب العربي ، إذ أحيا ذكرى هذا الشاعر العظيم الذي لم ينل شعره ما يستحقه من عناية ودراسة . والثانية للعراق لما جره الحديث من ذكر العراق ووصفه وتاريخه . وكان — رحمه الله — بما عرف عنه من اندفاع الشعور وحدة العاطفة ورقة الطبع قد درس الشريف الرضي ودعا الناس إلى دراسته ودلهم على مواطن العبقرية والعظمة في شعره . ولكنه كان أول من صدق أقواله فيه ، وزادته دراسته للشريف الرضي إعجابا به ، حتى قال عند تقديمه المحاضرات مجموعة في كتاب ، على طريقته المعروفة : « إن الشريف الرضي في كتابي ، أشعر من المتنبي في أي كتاب ، ولن يكون المتنبي أشعر من الشريف إلا يوم أؤلف عنه كتابا مثل هذا الكتاب ! »

وفي بغداد نظم قصيدة ألقاها في (نادي القلم العراقي) يقول إنها أعظم ما نظم في حياته عنوانها « من جحيم الظلم في القاهرة إلى سعير الوجد في بغداد » ومطلعها

وفدت على بغداد والقلب موجع
فهل فرجت كربي وهل أبرأت دائي ؟

وقال — رحمه الله — في « وحي بغداد » :

« وأخشى ألا أظفر بكلمة رثاء يوم يشيعني الناس إلى قبري ، فذاكرة بني آدم ضعيفة جدا ، وهم لا يذكرون إلا من يؤذيهم ، أما الذي يخدمهم ويشقى في سبيلهم فلا يذكره أحد منهم بالخير إلا وفي كلامه نبرة تشير إلى أنه يتصدق بكلمة المعروف »

كلا يا صديق العراق ومحبه !

فإن بنـاك العراقيون ، وهم إن ذكروك لم يحسنوا إليك ، وإنما أحسنوا إلى أنفسهم ، ولم يتصدقوا بكلمة المعروف ، بل ردوا دينا لك في أعناقهم . وإنك لم تمد الحق يوم قلت :

« وستمر أجيال وأجيال ، ولا ينسى أهل بغداد ، أن مدينتهم عاش فيها رجل أحبها أصدق الحب ، اسمه زكي مبارك »

القاهرة

عبد الفتاح صقر

(٢) وهي « ليلى المريضة في العراق » في ثلاثة مجلدات و « وحي بغداد » و « ملامح المجتمع العراقي » و « عبقرية الشريف الرضي »